الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مالقة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سمتها بإسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو وُلدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هدريان. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعدَّ بقوة لهذا الازدهار، كما أعدَّ لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلِّمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجىء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقيين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلَّمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورنيّ وراسين مثلها المسرحى الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاتهامه باشتراكه فى مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسبانى هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولايزال - المرجع الأساسى للأوربيين فى التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنيكا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه فى مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين[١].

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما فى الأدب اللاتينى أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا، بل أنتجوه فى روما، وهو لذلك أدب لاتينى رومانى خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال فى العهد الرومانى كما كانت فى العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسمات، بل ظلت روما ترعاها وتتعهدها فى الحضارة كما تعهدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت فى القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلَّمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابا من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصوره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت فى قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء فى الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا فى عهد القوط بإسبانيا من الجهالة[٢]، وليس لهذه المجموعة أى ذكر فى كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق ما يقوله صاعد فى كتابه طبقات الأمم من أن هذا القُطر لم يُعْرَف فى

---

(١) انظر فى سنيكا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٠/١٦٣ وما بعدها وكذلك ١٧٤ وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢/١٩٤ وما بعدها.

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا فى وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب[١]. وكان فيه - كما مر فى الفصل الماضى - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمى، وأيضا لم يكن لهم دور فى الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثل العلم العربى ثم على المساهمة فى ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جَدَّ الغرب فى طلب العلم الأندلسى والوقوف عليه. ومثل اليهود - فى ذلك - الصقالبة الذين مرَّ ذكرهم فى غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرَّبضى، وكانوا يتعلمون العربية ويتثقفون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور فى الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن فى عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية فى الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولَّدين أسهموا فى تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذى استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أُسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته فى كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلِّمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفِّظونهم بعض القرآن ويبصِّرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون فى جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة[٢]، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتَّابا فى عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقى فى أماكن مختلفة من أحياء قرطبة.[٣] وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلِّم الكتاتيب يسمى مؤدِّبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة[٤]، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوى بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

---

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة) ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) ص ٤٠.

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ٢/٢٤٠.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبع القاهرة) ص ٢٧٨.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوِّه ابن خلدون بتعليم الناشئة فى الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى»[١]. وابن خلدون يثنى - بذلك - على مؤدبى الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا فى الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مرنوهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدَّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يُؤدِّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدب أبناء العامة فى المساجد أو فى دور ملحقة بها أو فى دور مستقلة بهم أو فى دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنْهى هذا التعليم الأول على أيدى المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ فى المساجد ليتسع فى دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوى، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم فى أى علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى ينابيعه الأساسية فى المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تُذْكَر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودى[٢] النحوى المتوفى سنة ١٩٨ والغازى[٣] بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة فى طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحبيبها إلى الشباب القرطبى وتشجيعهم عليها، ورحل فى عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطَّئه. وتصبح الرحلة فى طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرى لمشاهيرهم فصولا طويلة فى نَفْحه، وهى تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهده كثرة مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الربض القبلى عليه بقرطبة، فقد ألَّبهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلبوهم عن قرطبة،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٢٥٢ ص ٢٧٨

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (٣) الزبيدى ص ٢٧٧.

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى.

ويلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد فى المغرب، كما مر بنا: «عُنى أبوه بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم فى فنه»[١] ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا فى علوم الدين والفلسفة»[٢] ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر فى دولته وإسعافهم فى مطالبهم كلها»[٣] وسنرى فى غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالمئات - فى المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمنه بعد يحيى الليثى تضم ثلاثمائة طالب[٤]. وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدِّما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف فى رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»[٥] ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له[٦]، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلَب أولهما كتاب مصنف ابن أبى شيبة فى الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماه منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملاءه الكتاب على الطلاب فى المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا فى فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

---

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ٤٥/١.
(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٤.
(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.
(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة) ٨/٢.
(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع بيروت) ص ٢٤٥.
(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

العلم والفقه باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة[١]» وفى ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس فى عهده الذروة المنتظرة فى قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية فى أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستنَّ له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكى بالفسطاط - وهو أندلسى الأصل - عشرة آلاف دينار[٢] ليفرِّقها على شيوخ المالكية بمصر لنتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستنَّ لابنه الحكم أيضا إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا فى الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى[٣] سنة ٣٣٠ فبالغ فى الحفاوة به، وقاد أبو على فى الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عُنى الناصر بعلماء الدين واللغة عُنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس فى الصيدلة باليونانية، ولم يكن فى قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعا، وألف الناصر لجنة لمساعدته فى ترجمة الكتاب إلى العربية[٤].

واقتدى الحكم بأبيه منذ كان وليا لعهده وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها فى أيامه، حتى إذا خلفه فى الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عُنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرَّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوَّه بهما طويلا فى مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين فى الأندلس وفى المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب[٥] فى فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

---

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى١/٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر فى وفادة أبى على القالى على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص٢٠٤ وإنباه الرواة ١/٢٠٤ ومعجم الأدباء لياقوت٧/٣٠ وبغية الملتمس للضبى ص٢١٦ وجذوة المقتبس للحميدى(طبع القاهرة)ص١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة) ص٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى الذى ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهانى، وكان ابن داود ذكر فى كتابه مائة باب فى كل باب مائة بيت فجعل الجيانى كتابه مائتى باب فى كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئا[١]، وسمع الحكم بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى فأرسل إليه ألف دينار ذهبا ليبعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقّحة، وأرفقه بكتاب فى أنساب أسرته الأموية موشّحا بمناقبهم، فجدَّد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضى الأبهرى المالكى حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فى الفقه المالكى[٢].

ويقول ابن الأبّار: «لم يُسْمَعْ فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها[٣]» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده[٤]». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلّاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته فى القصر كانت أربعا وأربعين فهرسا فى كل فهرس عشرون[٥] ورقة – وفى رواية خمسون ورقة – وكانت الدار التى اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمى، وكانت تزخر بالحذاق فى صناعة النسخ والتجليد[٦] وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخا منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى فى الجذوة أن الحكم مرَّ يوما بأبى على القالى ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضى منذر بن سعيد التى أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوى ابن ولاد، ومكث معهم قليلا يسألهم عن نسخ الكتاب[٧]. ويقول ابن الأبار منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

---

(١) انظر الجذوة ص٩٧ وبغية الملتمس ص٤٠ وابن دحية فى المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم فى الحلة السيراء لابن الأبار (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته فى الحلة السيراء وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعمائة ألف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص٤٧ وما بعدها.

لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه – إما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه – نسبَ المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به[١]». وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس فى عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب فى العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضًا بفضل ما أغدق عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب فى المساجد، بل كان يعممها فى المؤدبين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين فى الكتاتيب[٢] ومرَّ بنا أنه أنشأ فى قرطبة سبعة وعشرين كُتَّابا، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوَّه بأهله ورفع ذكرهم، ورغَّب الناس فى طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده[٣].

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان فى الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدبير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه فى ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى فى الشمال انتصر فيها دائما واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حبَّب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم فى كل أسبوع يوما يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه[٤]، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادى اللغوى، وألف له فى اللغة كتبا مختلفة نال بها منه أموالا جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له توا بخمسة آلاف دينار[٥]. وكان يعنى بالفقهاء

---

(١) ترجمة الحكم فى ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض فى كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقَّرعن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ٢٠١/١.

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحميدى ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة للقفطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يحيىَّ بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقربا للعامة - أن ينكّل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى[١]، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم[٢] حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدِّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاما وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مختزنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدَّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هيَّأ لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقا كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سماها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

---

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولابُدَّ أنْ كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (الترجمة العربية) ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٤٣٧/٢.

نحو مائة مجلد[١]. وبثَّ بنو ذى النون فى طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة فى عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء[٢]». ونهضت سرقسطة فى أقصى الشمال بحركة علمية نشطة فى الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت فى دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بنى هود وله فى العلوم الرياضية تآليف مثل الاستهلال والمناظر[٣] وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت فى المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبى أول أمرائها، وكان كاتبا مبدعا وشُغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمائة ألف مجلد[٤]، وصارت الإمارة سريعا إلى بنى صُمادح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة فى عهد أميرها المعتصم وكان شاعرا مجيدًا كما كان ممدَّحا أكثر الشعراء من مديحه[٥]. وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون فى مرسيه وبلنسية فى شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالما بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم فى حضرته حتى فشَا فى جواريه وغلمانه[٦]. وكان لغرناطة فى جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر فى الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر فى نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين فى المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة فى وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين فى الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

---

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادى الأديب.
(٢) المغرب ١٢/٢.
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.
(٤) المغرب ٢٠٦/٢.
(٥) انظر ابن الأبار فى الحلة السيراء ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوما فى كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه فى التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

الفقهاء فى هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه[١]، واحتذاه فى ذلك ابنه على خليفته فى الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل فى المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالما مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية[٢] وكان مؤثرًا لأهل العلم ويجرى عليهم الرواتب الواسعة[٣] وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ.) وكان قد درس فى إشبيلية على فقهائها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حُفَظَة حتى ليقولون إنه حفظ البخارى بأسانيده، وشُغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر[٤]، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفا مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة.[٥] وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو فى الأندلس طوال عصر دولتى المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط فى أيدى المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس فى غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة فى حجر النصارى أن تستتم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر فى الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقية (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقية لدراسته الفقة أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفا بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطى كى يدرسا للطلاب فى غرناطة العلوم الطبية والفلسفية[٦] ولعل أكبر أمير من بنى الأحمر نشطت دراسة العلوم فى عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

---

(١) روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.

(٣) المعجب ص٢٦٩.

(٤) المعجب ص٣١٠.

(٥) انظر كتابنا الرد على النحاة (طبع دار المعارف) ص١٥.

(٦) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة) ٦٧/٣ - ٦٨.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذى أنشأ لأول مرة فى غرناطة - بل ربما أيضا فى الأندلس - مدرسة سماها المدرسة[١] النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا فى المساجد أو فى دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب فى منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء فى المساجد أو فى منازل العلماء التى كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة فى هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يُلْزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروض دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجواريهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان فى الصغر مثل ابنة حزم التى كانت تشترك مع أبيها وأخيها فى تأديب الناشئة بدار واحدة[٢] وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم فى أى فرع من فروع العلم إلا ويأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشىء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كُنَّ يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبتلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد[٣] وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم فى الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

---

(١) راجع هذه المدرسة فى ترجمة رضوان النصرى فى الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس[١]. ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديبا شاعرا وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها[٢]. ومر بنا فى الفصل الماضى ثلاث من جوارى القصر الأموى كانت اثنتان منهن: مزنة وكتمان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة لُبْنى تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالةُ التى عزَّى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبى عامر عن أبيه وجدَّد له العهد بالحجابة[٣] سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجوارى فى قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهن اللائى كن يقمن على تربية النَّشْءِ فى تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء فى العهد الأموى إذ يقول عن نشأته فى أواخر القرن الرابع الهجرى بكتابه طوق الحمامة: «إننى رُبِّيت فى حجور الجوارى ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب وحين بقَل[٤] وجهى وهن علمننى القرآن وروَّيننى كثيرا من الأشعار»[٥]. وتلقانا فى كتب التراجم من حين لآخر عالمات متعمقات فى العلم مثل ابنة فائز زوجة أبى عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبى عمرو الدانى المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبى داود بن نجاح فى آخر سنة ٤٤٤ للهجرة[٦]. وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت فى العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها فى علم العروض وعنها أخذه أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالى[٧] واشتهرت فى تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتانى بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة.[٨] وتلقانا فى القرن السادس أم العز[٩] راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

---

(١) المراكشى ٤٨١/٢/٨.
(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.
(٣) المراكشى ٤٩٣/٢/٨.
(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.
(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر أحمد مكى طبع دار المعارف) ص ٧٩.
(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشى ٤٩٤/٢/٨.
(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشى ٤٨٠/٢/٨.
(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة لابن بسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.
(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشى ٤٨٣/٢/٨.

أمير شرقى الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبى بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتها، وكانت الطبيبة لنساء الأمراء من بنى عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجواريهم، وكانت تُستَفْتى فى الطب لرجالهم فتزيد حظوة[١] عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتُعَد بحق - جدَّة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللائى كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول فى بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة.[٢] ويذكرون عن محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها فى دفعه إلى التصوف نونّة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم فى موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التثقف بالشعر، مما هيأ لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل

لم يكن فى إسبانيا قبل فتح العرب لها شىء واضح من علوم الأوائل فى الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى مما ترجم فى بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عُنى بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث فى الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها،إذ يمضى ابن سعيد فى ترجمته قائلا إنه: وجَّه عباس بن ناصح إلى العراق فى

---

(١) انظرها فى الذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٣/٢/ وراجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة فى ترجمة أخيها الطبيب أبى بكر ابن زهر، وكانت ابنتها طبيبة مثلها.

(٢) انظر المراكشى ٤٨٥/٢/٨.

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرَّف أهلها بها، ونظر هو فيها»[١]. وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد فى الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا فى زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشِّمْر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجرى عليه راتبا للشعر وراتبا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهده، وله معه فى التنجيم أخبار طريفة[٢].

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين فى القرن الثالث الهجرى منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بهما من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس[٣] بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة فى أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نُسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان فى المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا فى فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب فى غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصَوْغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع فى بيته قبة على هيئة السماء تتراءى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال فى تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سَرَق (شقق) الحرير فتهيأ له أن طار فى الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل فى الهواء فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة.

وتأخذ علوم الأوائل ومايتصل بها من الفلسفة فى النمو منذ عصر الأمير محمد

---

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر فى ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضى رقم ٦٨٩ والزبيدى ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشنى ص ٨٣.

(٣) راجع فى ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

والجذوة للحميدى رقم ٥٠٥ وبغية الملتمس رقم ٨٤٥.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ.)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم فى علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جُلب وأكبَّ العلماء عليه يدرسونه. وطبيعى لذلك أن يظهر فى عهد المستنصر مسلمة[١] المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد تُرْجم إلى اللاتينية فى بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة فى الأسْطُرْلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمى أوجداوله الفلكية وقد حوَّلها من التاريخ الفارسى إلى التاريخ العربى وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتّانى سماه تعديل الكواكب. وخلفه فى الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمرَ المنصور بن أبى عامر فى زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرَّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلَّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطُها فى بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم[٢] أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا فى الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» فى تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة فى الحساب، وكتابان فى الأسطرلاب أحدهما فى التعريف بصورة صنعته والآخر فى العمل به، وله أيضا زيج فلكى انتفع به وبكتاباته الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابنُ الصفّار[٣] أحمد بن عبدالله الغافقى، وله زيج جيد ورسالة فى العمل بالأسطرلاب، وكان يعلِّم فى قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة فى أوائل القرن الخامس الهجرى - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامرى وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى[٤] عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

---

(١) انظر فى مسلمة المجريطى طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدوميلى (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص٣٥١ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٢٣/٤.

(٢) راجع طبقات صاعد ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٣ وبالنثيا ص ٤٤٩ وألدوميلى ص ٣٥١.

(٣) انظر فى ابن الصفار طبقات صاعد ص١٠٨ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص ٤٥٠ وألدوميلى ص٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع فى الكرمانى طبقات صاعد ص١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص٤٥٥ وألدوميلى ص٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود فى رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال فى الفلك[١].

ولعل فى التلامذة السابقين لمسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولايلبث أن يظهر فى عصرهم عَلَمُ الرياضيات الزِّرقالى[٢] القرطبى المتوفى سنة ٤٧٢ وهو من أعاظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأُسْطرلاب واخترع له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر فى الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماؤه من مؤلفاته رسالة فى العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرْجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة فى عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس فى حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير فى عهدهم ولكنه لايعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون فى الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع فى عصرهم اسم جابر[٣] بن أفلح الإشبيلى وله كتاب فى حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه فى علم النجوم الذى سماه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م. وتخلف دولة الموحدين دولة المرابطين فى الأندلس منذ العقد الخامس فى القرن السادس الهجرى، ويتألق فى عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلى عربى يُعَدّ فى طليعة الرياضيين

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنثيا ص ٤٥٥. وعاش فى بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطى ابن البغونش انظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٥ وبالنثيا ص ٤٥٣.

(٢) انظر الزرقالى فى طبقات صاعد ص ١١٧ وبالنثيا ص ٤٥١ وألدوميلى ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر فى جابر بالنثيا ص ٤٥٦ وألدوميلى ص ٣٨٣.

العالمين، ونقصد البِطْرَوجى[١] أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكى فى علم الهيئة، إذ قوَّض فيه نظرية بطليموس فى كتابه المجسطى عن الكواكب السيارة قائلا إنها تتحرك فى مدارات إهليليجية أو بيضاوية حول الشمس، وتَرْجَم هذا الكتاب الفلكى سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة واطَّلع عليه حوالى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجى الفلكية مبكرا إلى العالم الغربى وترجمها إلى العبرية موسى بن طِبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية قالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ ونشرت ترجمته فى البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١م.وبدون ريب اطلع كبلر[٢] الألمانى (١٥٧١ - ١٦٣٠م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التى استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كبلر أبًا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى الحقيقى هو البِطْرُوجى الإشبيلى العربى. وتوقف هذا النشاط فى الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت فى يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها فى أيدى المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة فى الأندلس، وأخذ النشاط فى علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التى ظلت للعرب فى الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرَّقوطى[٣] محمد بن أحمد وتوفى بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات فى مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب فى حاضرته، ولبَّاه سريعا، ويختتم الرياضيين الأندلسيين فى نهاية القرن التاسع الهجرى القَلَصادى[٤] على بن محمد القرشى وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفى ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦م وظلت كتبه تتدارس فى المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

---

(١) راجع فى البطروجى ابن أبى أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنثيا ص ٤٥٦ وألدوميلى ص ٣٨٣ ومابعدها.

(٢) راجع بالنثيا ص ٥٣٥.

(٣) انظر فى الرقوطى بالنثيا ص ٤٥٧ والاحاطة ٦٧/٣ وما بعدها.

(٤) راجع فى القلصادى ترجمة واسعة فى نفح الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوى ١٤/٥ وبالنثيا ص ٤٥٧ ومابعدها وألدوميلى ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

وازدهر الطب فى الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصَرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط[١] (٢٠٦ - ٢٣٨) ويمكن أن نعمم ذلك فى الأندلسيين بعامة، كما مرَّ بنا آنفا، فإنهم انتظروا فى ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته فى الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين[٢] بن أبان وكان - كما يقول ابن جلجل - طبيبا حاذقا، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحرانى[٣] اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سماه المغيث، ويذكر ابن جلجل فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيبا يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة[٤]. ثم أخذ علم الطب فى الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا فى صدر دولته يحيى[٥] بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله فى الطب كتاب فى خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان[٦] بن باج، وكان يعاصره سعيد[٧] بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفى سنة ٣٤٢ وكان حاذقا فى علاج الحميات، وله كتاب فى الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد[٨] بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتتلمذا لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرآ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحرانى وأخذا عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفى عمر، وظل المستنصر حفيا بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهرا فى علاج أمراض

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٩٢.

(٢) انظر فيه ابن جلجل ص٩٣ وبالنثيا ص٤٦١.

(٣) انظر فى الحرانى ابن جلجل ص٩٤ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٦.

(٤) راجع فى ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل ص٩٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيا لقعود الناس.

(٥) انظر فى يحيى بن اسحق ابن جلجل ص ١٠٠ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٨.

(٦) راجع فى ابن باج ابن جلجل ص١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٩

(٧) انظر فى سعيد ابن جلجل ص١٠٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١٢٠/١ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنثيا ص٤٦٢.

(٨) راجع فى أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص١١٢ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٧ وبالنثيا ص٤٦٤

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد[١] بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبَّر مارستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر.

وتتوَّج النهضة الطبية حينئذ بالزهراوى[٢] أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما فى الطب العام والأمراض وقسما فى الصيدلة وقسما فى الجراحة، وعُنى جيراردى الكريمونى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزائه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوربية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدُّون الزهراوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصاة فى المثانة والمهبل والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمَّن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البِطْرَوْجى السالف الذكر أبًا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويُتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيليه، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك[٣] جدهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارت شهرته بها فى عصر أمراء

---

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص١١٥ وابن أبى أصيبعة ص٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهراوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨ وابن أبى أصيبعة ص٥٠١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٠٠/٤ ومابعدها وبالنثيا ص٤٦٥ وألدوميلى ص٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره فى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩ والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص٥١٧ والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان عباس ٣٧/١/٥.

الطوائف إلى أن توفى سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء[١] طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه على إلى أن توفى سنة ٥٢٥ للهجرة، وله فى الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبى أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها فى السنة التالية لوفاته، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحيانا باسم كتاب النكت) وقد نشره جبرييل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك[٢] طبيب المرابطين ثم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله فى صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقى منها ثلاثة إلى اليوم، هى: كتاب الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد وهو فى الطب الباطنى، وكتاب الأغذية والأدوية وهو فى الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو فى الطب العملى، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة فى البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلى: «يُعَد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربى عملى (كلينيكى) بعد الرازى». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذى انفرد بالإمامة فى الطب لزمنه إلى أن توفى سنة ٥٩٥ ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب فى هذا البيت، فكان عبد الله[٣] بن أبى بكر بن زهر طبيبا حاذقا وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفى سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبى الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات فى الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية فى منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبى العلاء زهر، وتلقَّن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد[٤] عبد الله وخدم بها الناصر

---

(١) راجع أبا العلاء فى التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبى أصيبعة ص٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص٢٠٣ وفيه أنه تطبب زمانا طويلا بالمشرق وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبدَّ بها أهل زمانه.

(٢) انظر فى عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر ابن أبى أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا بمدريد) رقم ١٧١٧ وبالنثيا ص ٤٧١ وألدوميلى ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.

(٣) راجع ابن أبى أصيبعة فى ترجمة أبيه ص ٥٢٩.

(٤) انظر أيضا ابن أبى أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

الموحدى. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بنى الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة فى وصف وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة المرية سنتى ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبيا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب فى الطب كتابا فى جزءين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرَّ بنا، وكان له تأثير بعيد فى نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا فى صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل فى ترجمته إنه تولى خزانة الطب فى قصر المستنصر، ورتَّب لها اثنى عشر صَبِيًّا صقالية طبَّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. ونلتقى فى عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبى أصيبعة[١] كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام فى الأدوية المسهلة والمقيِّئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل[٢] مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره فى الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرها فى الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة فى ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب، ومقالة ثانية فى أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن[٣] سَمَجون وله كتاب فى الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير[1] قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيادلة فى عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى فى عصرهم ابن[٤] وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهَّر فى علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان فى الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

---

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر فى ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتمس للضبى (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنثيا ص ٤٦٥ وألدوميلى ص ٣٥٤.

(٣) انظر فى ابن سمجون ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٦٧

(٤) راجع فى ابن وافد طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنثيا ص ٤٦٧.

نوادر محفوظة فى الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأميرها المأمون بن ذى النون. وتَسْند كتبَ الصيدلة حينئذ كتب أُلِّفت فى الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع فى الفلاحة لابن[١] حجاج الإشبيلى المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردنى. وهو يفيض فى بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب فى الفلاحة كتاب لأبى عبيد البكرى الجغرافى المتوفى سنة ٤٨٧ وهو فى نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصد والبيان».

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى، ونلتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد[٢] بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة فى العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ فى كتبه بنحو مائتى نقل عنه، وأيضا فإن ابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصرا ونشره جورج صبحى وماكس مايرهوف بالقاهرة. ونلتقى بعده بابن[٣] العوام أبى زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدريد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة فى علم النبات، وقد عدَّد منه ٥٨٥ نوعا منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. وممن تعمقوا فى دراسة النباتات فى الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية[٤] الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر فى طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوَّل فى الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة فى تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار[٥] أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجول فى نواحى المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

---

(١) انظر ابن حجاج فى المغرب ٢٥٦/١ وبالنثيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع فى الفلاحة.

(٢) راجع فى الغافقى ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٧٢ وألدوميلى ص ٤٠١.

(٣) راجع فى ابن العوام بالنثيا ص ٤٧٥ وألدوميلى ص ٤٠١ وأعمال مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم (١٨٨٩ م) ٢١٥/٢ - ٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٤) انظر فى ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبى أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدوميلى ص ٤١٤.

(٥) راجع فى ابن البيطار ابن أبى أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاكر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدوميلى ص ٤١٤.

رئيسا على العشَّابين بمصر، وظل يرأسهم فى عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفى بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبى أصيبعة عنه: أوحد زمنه فى معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق فى أربعة مجلدات وهو معجم أبجدى للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثانى المغنى فى الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده فى العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلى فى الأندلس بعده محمد بن[١] السراج الغرناطى المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع فى الأدوية والأعشاب كتبا كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها فى الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن[٢] عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه فى عقيدته، وكأنما خشى على نفسه، فرحل فى سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختَلف فى رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل فى ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه فى عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف ، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحريته فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

---

(١) انظر فى ابن السراج بالنثيا ص ٤٨٢.

(٢) راجع فى ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها وكتاب الناصر فى التنديد بمذهبه ص ٢٥ والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة) ١٩٨/٤ وبالنثيا ص ٣٢٦.

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأ إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلى المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألَّف فى ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح فى أحاديث الشفاعة ويؤوِّل آيات القرآن. وكان يَسْتُر دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا، ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتْلَى على الناس فى قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضَّح فيه نحلتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمَرَ من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور فى عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمنه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألَّف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه فى ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم فى كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره فى القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فإما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعينى، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه[1]. وظلت تعاليم ابن مسرة حية فى الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا فى اتجاهه أو بعبارة أخرى فى اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسطاطاليس.

وكثر هذا الاتجاه فى عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

---

(١) الفصل ١٩٩/٤.

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطلى المتوفى سنة ٤٦٢ فى كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبى الوليد الوقشى الطليطلى وابن الجلاب السرقسطى وابن سيده المرسى، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقى ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية[١] بن عبد العزيز الدانى المتوفى سنة ٥٢٩ وله فى المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدريد مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن[٢] السيد البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوى وله فى الفلسفة رسالة مطبوعة فى القاهرة بعنوان: «كتاب الحدائق فى المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفنى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد فى الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاورة تيماوس ونقل بالنثيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليونانى المعروف لتلك المحاورة.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن[٣] باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة فى سرقسطة شمالى الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التى عنيت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكبَّ مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكبَّ على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ فى الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر[٤] بن تِيفَلْوِيت حين حكم سرقسطة من قبل

---

(١) انظر فى مصادر أمية ترجمته فى الفصل الرابع.

(٢) راجع فى ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلائد العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالنثيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر فى ابن باجة القفطى ص ٤٠٦ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح فى القلائد ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفح الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والوافى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالنثيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته فى الإحاطة ٥٠٤/١.

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتبا له ووزيرا، حتى إذا توفى هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مراثيه وتغنى بها فى ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين فى المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبى أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان فى أقاويله، وقد عنى عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعى أو سمع الكيان، وجزءا من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءا من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابى والأدوية المفردة لجالينوس وأيضا لابن وافد. وله تصانيف فى الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله فى الفلسفة كتاب فى البرهان وكتاب فى النفس وكتاب فى العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدريد وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض فى بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصَل بين التأمل العقلى وبين عَوْنٍ علوى، محاولا الوَصْل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد[1]، فبلغا بالفلسفة الإسلامية فى موطنها الغاية التى ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل[2] هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسى، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة فى بُرْشانة من أعمال المريَّة، وقيل فى وادى آش من أعمال غرناطة، وقيل بل فى تاجَلة من أعمال جيَّان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكرا، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف فى زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف فى الفلسفة مثل كتاب له فى النفس، واشتغل بالطب فى غرناطة

---

(١) انظر فى تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفى تلمذة ابن رشد له ابن أبى أصيبعة فى ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع فى ابن طفيل المعجب ص ٣١١ وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وتحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالنثياص ٣٤٨ والميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقى. (طبع دار المعارف).

وببعض الأعمال الإدارية فيها وفى سبتة وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذه مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وممن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيًّا به إلى أن توفى قبله بقليل فى مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفى ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له فى الطب والفلك مؤلفات سقطت فى يد الزمن، ويقول البطروجى أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله فى الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر فى عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخصها بحديث مفرد فى الفصل الأخير.

وابن رشد[1] هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها فى العقد الثانى من القرن السادس الهجرى، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا فى إشبيلية سنة ٥٦٥ وفى قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكبَّ على دراسة الفقه فى بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعًا مهما فى الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وتُرْجم فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٤٨٢ وتُرْجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا فى الطب طُبع أيضا فى البندقية بعد كتابه الكليات بسنتين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشُغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنِّه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

---

(١) راجع فى ابن رشد ابن أبى أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار فى كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوافى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ١١٤/١ وابن فرحون فى الديباج المذهب ٢٥٧/٢ والمغرب ١٠٤/١ وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ وابن العماد فى الشذرات ٣٢٠/٤ وبالنثيا ص ٣٥٣ وتراث الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى فو عنه فى دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابى د. عاطف العراقى عن النزعة العقلية والمنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد. (طبع دار المعرف).

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر فى موقعة الأرَك المشهورة ضد نصارى الإسبان سنة ٥٩١ أخذته الحميَّة للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدم العالم بالقوة موفقا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه فى سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراكش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبىَّ نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة لخَّص فيه كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء» ويقول بالنثيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعى وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرْجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصيلة فى الفلسفة وفى مقدمتها تهافت التهافت الذى يرد فيه على الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسطاليس. وله شروح على كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرْجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتَّان بالجوهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل فى قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفى كل إنسان قبس منه، وإذا ازداد اتصاله به سما إلى حالة الكشف الصوفى. وأدَّته محاولته فى التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل فى النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالى وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجِد وتشكَّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء فى ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلى أو جزئى، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريمونى (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥ م) وهرمان الألمانى (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدْرَسُ فى الجامعات الأوربية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبَّت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتى الأستاذ بجامعة باريس وطردته من رحابها فى سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديًّا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكانى الألمانى ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكوينى هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه فى التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه فى طريق واحدة متبعين خطاه فيما قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقيصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس فى الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوى قرَّر سنة١٥٠٢ لَعْنَ كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس فى الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد فى قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى فى النهضة الأوربية، ويقول بالنيا إن تأثير ابن رشد فى تاريخ الفكر الأوربى كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعَدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام فى الأندلس.

(جـ) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشارقة فى الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربى والإسلامى، وقد يصفون أنحاء من أوربا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك فى جاهليتهم حين كانوا يكثرون من الرحلة وراء الكلأ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عبادتهم ومَنْسِكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسى، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربى جغرافيوُّه ورحَّالته، وأن تشارك الأندلس فى ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافى مهم نلتقى به فيها أحمد[١] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافى، ولم يبق من أعماله سوى قطعة فى جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها فى قسميها الغربى والشرقى وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان فى كتابه - وكذلك ابن سعيد فى كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو[٢] عبد الله محمد بن يوسف التاريخى القيروانى نزيل الأندلس فى عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك والممالك. ويلقانا فى عصر أمراء الطوائف أحمد[٣] بن عمر بن أنس العذرى الدلائى المريِّى المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان فى المسالك والممالك وفيه يعرض كُوَر الأندلس وأجزاءها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكرى[٤]، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان آباؤه أمراء وَلْبة وشَلْطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذهما منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريَّة، وأرسله ابن صُمادح صاحبها فى رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فآثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفى. وله فى الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

---

(١) انظر فى الرزى جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص٥٦.

(٢) راجع فى أبى عبدالله التاريخى الحميدى رقم ٩٠ وبغية الملتمس للضبى رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.

(٣) انظر فى الدلائى الحميدى رقم ٢٣٦ والضبى رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

(٤) راجع فى أبى عبيدالبكرى الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص١٩١ والصلة لابن بشكوال ص٢٨٢ وابن أبى أصيبعة ص٥٠٠ والمغرب ٣٤٧/١ والحلة السيراء (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٣٠٩ وما بعدها وألدوميلى ص ٣٦٠.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع فى جزيرة العرب، طبعه وستنفلد قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحِرار منسوبة محدَّدة ومبوَّبة على حروف المعجم مقيدة» واستهلّه بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد[١] بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سماه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب[٢] من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورته ومحرابه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرى احتفظ بها فى النفح، وله فى الجغرافيا كتاب مجمل سماه «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة[٣]» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السِّيلى أى اليابان.

---

(١) انظر فى الزهراوى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د.مؤنس ص٤٥٢ ومابعدها.

(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية فى وصف غرناطة لكتابيه: الإحاطة فى تاريخ غرناطة واللمحة البدرية فى الدولة النصرية. وحرىّ بنا أن نذكر محمد[١] بن عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار فى خبر الأقطار، وهو معجم جغرافى نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعيا أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سورًا منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا فى الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعا النطق بالفصحى وببعض آيات القرآن الكريم فى صلاتهم. ونلتقى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات فى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، ومن أوائلهم الغازى[٢] بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفى الغازى سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعى ونظرائه فى اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ فى الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس فى القرن الثانى والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين فى القراءات والفقه والحديث النبوى. وعلى شاكلته فى الرحلة والأخذ عن الأصمعى ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى[٣] الهوارى، وله كتاب فى القراءات وكتاب ثان فى التفسير. ومن معاصريهما جودى الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائى إمام النحو الكوفى وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف فى النحو، وكان يعاصره محمد[٤] بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى الراحل بدوره إلى المشرق.

---

(١) راجع فى الحميرى كراتشكوفسكى ص٢٩٥ وبالنثيا ص٣١١ ود.مؤنس ص٥٢٩.

(٢) انظر فى الغازى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى بتحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجى) ص ٢٧٦.

(٣) انظر فى الهوارى الزبيدى ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدى ص ٣٠٦.

ويذكر الزبيدى فى طبقاته عشرات من لغويى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى، منهم عثمان[١] بن المثنى القيسى تلميذ ابن الأعرابى، لقى أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد[٢] بن الفرج وكان من أقوم العلماء فى زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازى السالف ذكره، تتلمذ للغويى العراق من أمثال الرياشى وأبى حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت[٣] بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضى منذر بن سعيد بسماعه من أبى العباس بن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط[٤].

وينزل قرطبة أبو على[٥] القالى اللغوى الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوى عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط فى التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالى» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالى والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتابا فى الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبيانى وعلقمة والأعشى والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدى وأوس بن حجر والقطامى

---

(١) انظر فى ابن المثنى الزبيدى ص ٢٨٨ وابن الفرضى ٨٨/١ والمغرب ١١٢/١.

(٢) راجع فى الرشاش الزبيدى ص ٢٨٤ وابن الفرضى ص ١٤١ والحميدى ص ٢١١ والمغرب ١١٤/١.

(٣) انظر فى ثابت وابنه قاسم الزبيدى ص ٣٠٩ وابن الفرضى ٨٨/١ وبغية الملتمس للضبى ٢٣٨ وإنباه الرواة للقفطى (تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم) ٢٦٢/١.

(٤) الحميدى ص ٤٧.

(٥) راجع فى القالى الزبيدى ص ٢٠٢ وابن الفرضى ٨٣/١ والقفطى ٢٠٤/١ وبغية الملتمس ٢١٦ ومعجم الأدباء ٢٥/٧ والأنساب للسمعانى ٤٣٧ ب وابن خلكان ٢٢٦/١ والحميدى فى الجذوة ١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفى مواضع مختلفة وشذرات الذهب ١٨/٣.

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت فى النمو أثناء القرن الرابع الهجرى على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى فى اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريف الأفعال طَبعه جويدى فى ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة فى هذا الموضوع، وله كتاب فى المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحد ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية فى القرن الرابع الزبيدى[١] محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره فى حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنوادر ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال فى عهدهما دنيا عريضة، وفى مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيرًا من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لايمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله فى لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالتواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى فى ألسنتهم من أخطاء. ومن لغويى القرن الرابع السرقسطى[٢] سعيد المعافرى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه فى كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية فى أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفليلى[٣] إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

---

(١) انظر فى الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحميدى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتمس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا فى الهوامش.

(٢) راجع فى السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر فى ابن الإفليلى الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

شرح جيد على ديوان المتنبى. ومن لغويى القرن الخامس ابن سيده[١] على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفى المغرب لابن سعيد: «لايُعْلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثانى المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعانى فى سبعة عشر مجلدا، ويذكر فى مقدمته مصادره، وهى تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى اللغة كتاب لعالم لغوى قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده فى هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية».[٢] وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن حَزْم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات فى لغة واحدة، يقول فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام:«إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة - لا لغة حمير - هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذى يحدث من الأندلسى إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيروانى إزا رام نغمة الأندلسى.. وهكذا فى كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدَّل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة فى الأصل[٣]». وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة، وبتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شمالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

---

(١) راجع فى ابن سيده الحميدى وبغية الملتمس رقم ٢٠٥ والمطمح ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣٣٠/٣ والإنباه ٢٢٥/٢ ونكت الهميان ٢٠٤ وشذرات الذهب ٣٠٥/٣ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢٥٩/٢.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٦٧/١٣.

(٣) راجع الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (طبع القاهرة) ٣٠/١.

اللغات المقارن بين اللغات السامية التى ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوربيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم فى ذلك نفس شأنهم الذى مر بنا فى قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلم الشنتمرى[١] يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلى: امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ فى شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعى، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم[٢] بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤ شرحا لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكرى المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلى فى شرح أمالى القالى نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويى الأندلس المهمين ابن السيد[٣] البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبى العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضا شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشتركونى أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل فى الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا فى أوائل القرن السابع الشريشى أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحُه لمقامات الحريرى منشور بمصر.

ونشاط الأندلس فى النحو لا يقل عن نشاطها فى اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانُوا يعلمونها العربية أو النحو، ومرَّ بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى، وله تأليف فى النحو، ويُرْوَى أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتابا فى إعراب القرآن، ونلتقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالأقشتين[٤]

(١) انظر فى الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء ٦٠/٢٠ ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع فى عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

(٣) انظر مصادره فى ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.

(٤) انظر فى الأقشتين الزبيدى ص ٣٠٥ وابن الفرضى ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبى جعفر الدينورى كتاب سيبويه، وكان يدرس فى قرطبة لطلابه. ونلتقى بعده بمحمد[١] بن يحيى الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبى جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح فى الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفى دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدى، وهو أستاذه فى النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذى نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلى المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمى عن الرباحى. ولابن سيده الذى تحدثنا عنه آنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبى، وينوه فى مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيهما مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا على الفارسى وابن جنى، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم فى نحو المدرستين البصرية والكوفية - فى نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمرى الذى عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلل النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلى وأقرأه لطلابه مذللا لهم صعابه ومشاكله، وتوفّر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحى من كتاب سيبويه التى ذكرناها آنفا - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشرى يرحل فى شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوى أندلسى كان مجاورا بها هو عبدالله[٢] بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. ونلتقى بابن السيد البطليوسى المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجى، وله كتاب فى النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو فى آرائه النحوية بغدادى الاتجاه، يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله فى ذلك معاصره ابن[٣] الباذش

---

(١) راجع فى الرباحى الزبيدى ص ٣٣٥ وابن الفرضى ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان ٣٧٢/٤.

(٢) انظر فى ابن طلحة تفسير البحر المحيط لأبى حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة ١٨٢/٥).

(٣) راجع فى ابن الباذش بغية الملتمس ص ٤٠٦ والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبى على الفارسى، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابنُ الطراوة[١] سليمان بن محمد معاصرهما المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه فى النحو الأندلسى من انتخاب أفذاذ النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلى[٢] عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ فى كتابه «نتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى[٣] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة فى النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجى، ومثله ابن خروف[٤] على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجى، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد[٥] بن عبد الرحمن القرطبى قاضى قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذى نشرتُه مع تحليل لآرائه التى هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليلات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس فى تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين[٦] عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولى المسماة بالجزولية وكتاب فى النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور[٧] على بن مؤمن المتوفَّى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية فى زمنه بالأندلس، وله الممتع فى التصريف والمقرب فى النحو وهما منشوران،

---

(١) انظر فى ابن الطراوة بغية الملتمس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢٠٨/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص٢٩٦.

(٢) راجع فى السهيلى بغية الملتمس ص٣٥٤ والإنباه ١٦٢/٢ وطبقات القراء ٣٧١/١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.

(٣) انظر فى الجزولى الإنباه ٣٧٨/٢ وابن خلكان ٤٨٨/٣ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٤) راجع فى ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ وابن خلكان ٣٣٥/٣ والذيل والتكملة للمراكشى ٣١٩/٥ والفوات ١٦٠/٢ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٥) انظر فى ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبغية الملتمس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٠٨/١ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٦) راجع فى الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ١٢٩/٢ والإنباه ٣٣٢/٢ وابن فرحون فى الديباج ٧٨/٢ وابن خلكان ٤٥١/٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

(٧) انظر فى ابن عصفور بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه فى كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجى. ونلتقى بعده بابن[١] مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة فى النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصرى وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخارى سوى مصنفات أخرى فى النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع[٢] على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبى على الفارسى والجمل للزجاجى، وخاتمة أئمة النحو فى الأندلس أبو حيان[٣] محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابى ابن عصفور: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا فى النحو كتاب ارتشاف الضَرَب أى عسل النحل فى ستة مجلدات، وصنع له مختصرًا فى مجلدين، ويقول السيوطى فى البغية: «لم يؤلف فى العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُنيت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تعتمد فى ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشارقة فى البيان العربى، واستطاع المؤدبون فى أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثّل كثيرون خصائص البيان العربى، وأصبحوا شعراء وكتابا نابهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربى فى البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحى الاتجاه البلاغى المجدد الغالى فى التجديد[٤] والذى كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

---

(١) راجع فى ابن مالك طبقات الشافعية لسبكى ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفى كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لآرائه النحوية.

(٢) انظر فى ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

(٣) راجع فى أبى حيان طبقات الشافعية للسبكى ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر فى هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢ - ٦٦.

ويلقانا فى مطالع القرن الخامس الهجرى كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعلى[١] بن محمد بن أبى الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثانى على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتانى[٢] أبى عبد الله محمد المتطبب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقى المتوفى سنة ٣٣٢ فى كتاب «عيار[٣] الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهنى ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، إنما عُنى بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب فى وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب فى وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان فى الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتُعْرضُ فى كل ذلك التشبيهات الطريفة فى رأى ابن الكتانى لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب[٤] المتوفى بعد ابن الكتانى بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع فى العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول فى مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة فى وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

---

(١) راجع فى ابن أبى الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتمس رقم ١١٩٣ والحلة السيراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر فى ابن الكتانى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جلجل ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه لكتابه (طبع دار الثقافة ببيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه فى كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر فى حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر فى الرباط بتحقيق هنرى بيريس وفى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

فيهما على المشارقة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفى المشارقة أن يكون من بينهم ابن الرومى أكبر مبدع فى وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميرى فى كتابه مختاراته الشعرية والنثرية فى ثلاثة أبواب: باب جعله فى وصف الربيع ورياحينه وباب ثان فى وصف أزهاره، وباب ثالث فى وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف فى عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المنتحل والكلام المنتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة فى البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أكبَّت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت فى أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نُقل إليها من كتابات المشارقة فى البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهى تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد[١] بن عبد الملك الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصَّل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعى[٢] أبى القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه فى مقدمة تحدث فى فصولها عن صور من محاكاته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول فى بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعانى، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ماشاع ذلك بعده عند المشارقة منذ بدر[٣] الدين بن مالك المتوفى سنة٦٨٦كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث فى الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

---

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر فى الكلاعى المطمح ص ٢٩ وابن الأبار فى التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة كتابه إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

قُتلت بحثا عند المشارقة وأيضا عند ابن رشيق، فأفرد فصولا لأنواع الأسلوب فى الكتابة وهى عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالى من الأسجاع، والحالى وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلِّى بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصَّن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعات داخلية تتقابل فى كل سجعة طويلة مع قرينتها فى السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين فى الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهرا، ومن الكلام كلام وان فاح عنبرا» والمفصَّل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبى العلاء ولبديع الزمان الهمذانى رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهى صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهى أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعينى محمد[1] بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ريحان الألباب وريعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج اليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها فى سبعة مراتب وتهمنا فى حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب فى بيان شروط الفصاحة مستمدا من كتابات المشارقة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ فى حديثه عن عيوب الكلام من المعاظلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثرا فيها بقدامة فى كتابه نقد الشعر والحاتمى فى كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونمضى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى فنرى البلاغة تلتحم فى الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدَّى لكتابى الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصهما ويشرحهما بفكره العبقرى الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصا، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه موردًا لكل مبدأ بلاغى فيه أمثلة من الشعر العربى على نحو ما يتضح فى قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع فى المواعينى ابن الأبار فى التكملة رقم ٧٦٣ ص ٢٣٣ والمغرب ٢٤٧/١.

وهو فيه يفصل الحديث فى أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه[١] فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذّر من التشبيهات النابية ملاحظا أن التشبيه ينبغى أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثرا بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صورا مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسنا وقبحا كقول القائل فى وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فشتان - فى رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضا تفاوت البيان فى التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الايجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل فى الشعر ولا تقبل فى النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصا لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله فى هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوى بمحسوس ملاحظا أنه ينبغى أن لايكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبى تمام، ويهاجمها متأثرا بالآمدى فى كتابه الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة فى بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق ولمراعاة النظير، وهاجم المبالغة فى الشعر التى تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التى تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجىء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء[٢] صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط فى المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافى فى نظم القوافى» وهو فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(١) انظر فى آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد فى الجزء الثانى والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع فى الحركة النقدية وأعلامها التالين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٢) انظر فى مصادر أبى البقاء الرندى ترجمته فى الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافى فى كتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق فى كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق فى كتابه العمدة، والجزء الثانى فى محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث فى سرقات الشعراء، والرابع فى حد الشعر والعروض. والجزء الثانى فى الكتاب يلتقى فى وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشارقة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرهما، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف اليها نحو ثلاثين محسنا. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتميم والتسهيم والترصيع والمبالغة، وفى كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقلما نلتقى بعد الرندى فى الأندلس بكتب مستقلة فى علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشارقة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى على نحو ما يتضح فى رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفصل القول فى هذه الرسالة[١] فى الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم ويهاجم فى رسالته شيخهم ابن الإفليلى، لأنهم يفقدون فى رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبى، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلمات فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة». ويلاحظ على أبى تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يغرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعانى الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البيِّنة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعانى بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائما عنده رهافة الذوق الأدبى ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة فى الشعر ويقصد بها إيراد المعانى الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى ونلتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها يُنَوِّه

---

(١) انظر فى الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته فى الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٧٥.

بالتخييل فى الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى فى الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ فى شعر عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشتركونى الذى مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها فى غير هذا الموضع ونراه فى مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقى حتى زمن مهيار، وهى أحكام منثورة فى كتب النقد عند المشارقة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعانى المبثوثة فى أشعار المشارقة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعانى الشعر المشرقى وصوره وأخيلته، ونراه يحمل[١] على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبى أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبى العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعته المحافظة. ويلقانا عند الكلاعى الذى تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبى الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعينى فى كتابه ريحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدى كان يرتكز على نقد المشارقة، وقلما التحم منه شىء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان فى كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنما احتفظ النقد الأندلسى بذلك لناقد متأخر هو حازم[٢] القرطاجنى المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى وهو فى النقد الأندلسى يقابل ابن رشد فى البلاغة الأندلسية الذى سبقه بنحو قرن، وقد وُلد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقى الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت فى حجر الروم - إلى المغرب وعاش فى ظل الدولة الحفصية. وله فى النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزاءه والأداء وطرقه وأثر الكلام فى السامعين، وسلمتْ منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتتعمق فى بحث المعانى والمبانى والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

---

(١) الذخيرة ٢/٤٧٩ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص٥٠٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه النقدية مقدمة محققه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

اسم مَعْلم أو معرف، ويُعْنَى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختم بملاحظات سماها مَأْمًّا أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعوَّل فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة؛ أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أعمالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخييل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لابد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوِّه بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لابد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قَسَّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحدث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحترى والمتنبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازه وتفرده الواضح. وحازم يختتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفِّظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك، ومرَّ بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلبا للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرئ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله[١] بن محمد القضاعى الذى كان يقرئ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشارقة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفا كبيرا فى القراءات هو أبو عمر[٢] الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

---

(١) طبقات القراء ٤٥٦/١. لابن الجزرى ٧١/١ وكتابه طبقات القراء

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر ١٢٠/١.

ومصر، وخاصة عن عبدالمنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد فى القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعنى بدراستها حتى توفى سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى[١] بن أبى طالب المعروف بحموش القيروانى منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبدالمنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعدَّ له ابن خلكان فى القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة فى خمسة أجزاء، وكتاب فى أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه فى جزءين وكتاب فى تصحيح المدِّ لوَرْش فى ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى[٢] المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة فى الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفى سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة فى قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير فى القراءات السبع وعليه عوَّل الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان فى قراءة ورش عن نافع، ونشر له فى دمشق كتاب المحكم فى نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد[٣] بن شريح الإشبيلى المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافى فى القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الدانى الإمام الشاطبى[٤] الضرير القاسم بن فِيرُّه نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرًا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات» وعدَّتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عوَّل القراء فى زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبى ما دوَّنه

---

(١) راجع فى مكى طبقات القراء ٣٠٩/٢ وبغية الملتمس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباه الرواة ٣١٣/٣ وابن خلكان ٢٧٤/٥.

(٢) انظر فى الدانى طبقات القراء ٥٠٣/١ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢١/١٢ وبغية الملتمس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٢٩٨/٣ وطبقات المفسرين للسيوطى ١٥٩ وإنباه الرواة ٣٤١/٢ والنفح ١٣٥/٢.

(٣) راجع النشر فى القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر فى الشاطبى التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢٠/٢ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٤٨/٥ ومعجم الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٠/٧ ونفح الطيب ٤٥/٢.

الدانى فى القراءات بقصيدته وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرَى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس[١]». وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطى الذى مر ذكره بين النحاة، ويقول فى مقدمة تفسيره إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتابا فى كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا فى قراءة زيد بن على إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسمه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئين: الدانى ومكى فى ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشارقة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم فى تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما أُلِّف فيه هناك كتاب بقى[٢] بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبرى أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى. ونلتقى بعد بقى بمحمد[٣] بن عبد الله بن أبى زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر فى التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكى المذكور آنفا تفسير ضخم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية فى معانى القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان فى سبعين جزءا، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقى التفسير الكبير لابن عطية[٤] أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضى المريَّة المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيها نابها عارفا بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز فى التفسير من أحسن التآليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعا، وهو فى مجلدات ضخمة، وفيه لخَّص - كما يقول

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافى ١٠٣٠/٣

(٢) راجع فى بقى ابن الفرضى ١٠٧/١ والحميدى ١٦٧ ونفح الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبى ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبى ٦٢٩.

(٣) انظر فى ابن أبى زمنين الحميدى ٥٣ وابن بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطى رقم ١٠٢ والوافى للصفدى ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.

(٤) راجع فى ابن عطية الفتح فى القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهى ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون فى الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

ابن خلدون - التفاسير المأثورة كلها وتحرَّى الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس[١]. وينسب لمحيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، ونلتقى بعده بالقرطبى[٢] محمد بن أحمد نزيل مصر الذى اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفى سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو فى عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية فى تفسيره[٣]. ويختتم نشاط الأندلسيين فى تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذى مرَّ بنا ذكره بين النحاة وهو فى ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر فى مقدمته مصادره فى اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية مواطنه وتفسير الزمخشرى، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنها والمراجعة لهما فى تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وببيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس فى علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيها معاوية[٤] بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء فى روايته أو فى التصنيف فيه وفى رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، ونلتقى فيه ببقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله فى الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف فى الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٢) انظر فى القرطبى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوافى للصفدى ١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.

(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٤) راجع فى معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣ والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدفى لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة للخشنى (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

فإنه روى أحاديثه فى المصنف عن مائتى رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»[١] ويقول ابن حيان فى المقتبس به انتشر الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد[٢] بن وضّاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - فى نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس فى الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»[٣] وهما لم يدفعا الأندلس إلى السعة فى الحديث وروايته فحسب، بل دفعاها أيضا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقى وابن وضاح تلميذهما ثابت[٤] بن عبدالعزيز السرقسطى المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق فى طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب فى غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور فى غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم فى زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين فى القرن الرابع قاسم[٥] بن أصبغ تلميذ بقى بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس فى الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له فى الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد[٦] بن عبدالملك بن أيمن (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس فى كثير من كتب المصنفات. ويلقانا فى آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال فى كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأسماء الرواة: المعدَّلين منهم والمجرَّحين[٧]. ونلتقى فى القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدى[٨] صاحب جذوة المقتبس التى نرجع إليها فى الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوى فى القرن السادس الهجرى، ومنهم رزين[٩] السرقسطى المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد فى الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس: البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى، وقد

---

(١) نفح الطيب ١٦٨/٣.

(٢) انظر فى ابن وضاح ابن الفرضى رقم ١١٣٤ والحميدى رقم ١٥٢ والضبى رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - نشر بيروت) ص ٢٦٤

(٤) راجع فى ثابت وقاسم ابنه مراجعهما فى هامش ص٩٢ وأيضا النفح ١٧٠/٣ والحميدى رقم٣٤٥، ٧٧١

(٥) انظر فى ابن أصبغ النفح ١٦٩/٣ وابن الفرضى رقم ١٠٦٨

(٦) راجع فى ابن أيمن النفح ١٦٩/٣ والحميدى رقم ٩٨ وابن الفرضى رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع فى الحميدى الصلة رقم ١١١٤ ومعجم الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من مصادر والوافى للصفدى ٣١٧/٤.

(٩) انظر فى رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبى ٧٤١.

دوت شهرته فى المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير فى كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطى[١] عبدالله بن على المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب فى أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعانى،

وجاء بعده ابن قُرْقول[٢]: إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضى عياض فى غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق[٣] الإشبيلى المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخارى ومسلم، وله أيضا كتاب فى الجمع بين الصحاح الستة وكتاب فى المعتل من الحديث وكتاب فى غريبى القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروى وثلاث نسخ من كتاب له فى الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس فى القرن السابع الهجرى ابن القطان[٤] على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلله ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تآليف مختلفة فى الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن[٥] فرح الإشبيلى نزيل دمشق وبجامعها حدَّث إلى أن توفى سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضَمَّن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة فى رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطى المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ[٦] يوسف بن عبدالعزيز الأندى المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب فى الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعى فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفى مقدمتهم صعصعة[٧] بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذى أفتى الناس هناك - أخذا برأى

---

(١) راجع فى الرشاطى الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣

(٢) راجع فى ابن قرقول بقية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر فى ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشى فى المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

(٤) راجع ابن القطان فى التكملة رقم ١٩٢٠

(٥) انظر ابن فرح فى طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ فى الصلة رقم ١٣٩٥

(٧) انظر فى صعصعة ابن الفرضى رقم ٦٠٥ والحميدى رقم ٥١٠.

أستاذه – بغرس الشجر فى صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل فى المساجد الجامعة بالأندلس[١] بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك[٢] بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون فى كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعَدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فَجّ، فكان طبيعيا أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوِّية فى العالم الإسلامى، وأيضا فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧٢ هـ) وابنه هشاما (١٧٢ – ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضبا للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجرَّده وضربه بالسياط عقابا له على فتواه[٣]. وهو ما جعل – فى رأينا – عبدالرحمن الداخل وابنه هشاما يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهى نصرة له ضد العباسيين وصاحبهم أبى حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة فى نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحَمْل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس – إن لم يكن أول من أدخله – الغازى بن قيس الذى مر بنا بين المؤدبين والقراء، يقول ابن القوطية: «فى أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازى بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرما ومتكررا عليه بالصلة فى منزله»[٤] ويقول الحميدى: كانت تدور الفُتْيا على الغازى بن قيس فى عهد هشام إذ كان مشاورا مع مصعب بن عمران[٥]. ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضا إلى الأندلس شبطون[٦]: زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفى بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

---

(١) انظر فى هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهى (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت فى الأندلس بقية لمذهب الأوزاعى فى الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيها على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

(٣) راجع ترجمة مالك فى ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد، ص ٣٥

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع فى شبطون ابن الفرضى رقم ٤٥٦ والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاة للخشنى ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسى مالكى يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى[١] بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان فى المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت فى الفقه المالكى طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذى علَّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعَدُّ فى الأندلس أفقه منه فى نظرائه» وله فى الفقه المالكى كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها فى معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم[٢]. وتألق فى الفقه المالكى بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى[٣] الليثى المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ فى أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل فى الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها فى الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولِّى قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكى وبذلك انتشر مذهب مالك فى الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرَّغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير فى الفقه المالكى وفقهائه فى الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرَّج فى الفقه المالكى على يد عبد[٤] الرحمن بن القاسم، وتخرَّج مثله على يده سحنون

---

(١) انظر فى ابن دينار ابن الفرضى رقم ٩٧٣ والحميدى ص ٢٧٩ والضبى ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفح ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضى عياض (طبعة الرباط) ١٧/١

(٣) راجع فى يحيى المقتبس ص ٤٢ و٨٣ وما بعدها وابن الفرضى رقم ١٥٥٤ والحميدى رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

(٤) يُذْكر كثيرًا فى النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بآراء عبد الرحمن بن القاسم المصرى الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندى فى رسالته التى كتبها فى فضل الأندلس واحتفظ بها المقرى فى النفح (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل فى أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

فقيه القيروان الذى حمل عنه مدونته[١] وأذاعها بموطنه، فنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته[٢] على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك فى كتب الفقه المالكى الأندلسى، ونمثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكًا فى فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا فى تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفى سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذى قال فيه الشافعى: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثى عميد الفقهاء المالكيين فى الأندلس المذكور آنفا والذى كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه فى القنوت فى الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه فى الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث فى إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث[٣] التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل فى غنم مائة وعشر ولآخر فى نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعها فيكون عليهما ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منهما شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف فى مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومرَّ بنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعى فى غرس الشجر فى المساجد مخالفين فى ذلك رأى مالك. وخلف يحيى الليثى فى رياسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد[٤] الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

---

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابنَ القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص٨٤.

(٣) راجع فى هذه المسائل التى خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهى ص٥١.

(٤) انظر فى عبد الملك بن حبيب ابن الفرضى رقم ٨١٤ والزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين ص٢٨٢ والحميدى رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمح لابن خاقان ص٣٦ وابن فرحون فى الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

الواضحة فى الفقه المالكى الذى اشتهر فى الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة[١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها فى الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى[٢] بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب فى تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعانى الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له فى رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى[٣] بن عبد الله حفيد يحيى الليثى المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملى على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة[٤] جدِّه يحيى الليثى. وفى ذلك ما يدل على أن كتابا فى الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون فى القيروان، كما كان يُرْوَى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبى زمنين[٥] المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب فى اختصار مدونة سحنون وكتاب فى الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى فى زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكى الأندلسى الكبير ابن عبد[٦] البر يوسف النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معانى الرأى والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافى فى الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده فى القرن الخامس أبو الوليد[٧] الباجى

---

(١) راجع ابن عتبة فى ابن الفرضى رقم ١١٠٢ والحميدى رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.

(٢) انظر فى ابن مزين ابن الفرضى رقم ١٥٥٦ والحميدى رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفح ١٦٨/٣.

(٣) راجع فى يحيى بن عبد الله ابن الفرضى رقم ١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جده كتبا عشرة له كان يرويها عن شيوخه وخاصة شبطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبى زمنين بين المفسرين ص ١٠٨

(٦) راجع فى ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحميدى ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٧) انظر فى أبى الوليد الباجى الصلة رقم ٤٤٩ وقلائد العقيان ص ١٨٨ والنباهى ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثانى ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتقى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب فى الأصول باسم إحكام الفصول فى أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب فى اختصار مدونة سحنون. ويلقانا فى القرن السادس ابن[١] رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية فى زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما فى المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت فى المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو[٢] بكر بن العربى محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس فى شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك فى شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة فى شرح كتب الصحاح فى الحديث وفى أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله فى الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعلَّل ووجهَّ فأفاد وأمتع به، ولا يعلم فى فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا[٣]. ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية فى المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية فى ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة فى الفقه المالكى فى نحو ١٦٩٠ بيتا وهى منشورة فى باريس منذ القرن الماضى، وكان الطلاب يدرسونها فى جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكى فى الأندلس، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب[٤] أبى حنيفة، إذ عُدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين فى الأندلس، ومثله المذهب

---

(١) انظر فى ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤ والنباهى ص ٩٨ والديباج ٢٤٨/٢

(٢) راجع فى ابن العربى الضبى رقم ١٧٩ والنباهى ص ١٠٥ والمغرب ٢٥٤/١ واللصلة رقم ١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٨٦/٣ - ٩٥ وابن فرحون ٢٥٢/٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفى محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين فى عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضى رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

الحنبلى البغدادى، أما المذهب الشافعى فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعى من مثل المُزَنى ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبى الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعى ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعى يلقانا بقرطبة هو قاسم[١] بن محمد بن سيار المتوفى سنة٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعى بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للتفقه والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعنى بنشر مذهب الشافعى عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتابُ الإيضاح فى الرد على ابن عتبة وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما فى ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتفَّ حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعى مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضى من فقهاء الشافعية يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز[٢] المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزنى والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم أصحاب الشافعى وليونس بن عبد الأعلى، ومما سمعه من ابن عبد الحكم مختصر المزنى ورسالة الشافعى. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون[٣] بن نصر القرطبى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعى. ومن فقهاء الشافعية فى القرن الرابع الهجرى أسلم[٤] بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتتلمذ للمزنى والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعى، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين فى أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

---

(١) راجع ابن سيار فى الحميدى ٣١٠ وابن الفرضى ٣٩٧/١ والسبكى فى طبقات الشافعية (طبعة الحلبى الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع فى يحيى ابن الفرضى رقم ١٥٦٨.

(٣) انظر فى هرون ابن الفرضى رقم ١٠٤٧ وابن فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر فى أسلم ابن الفرضى رقم ٢٧٨ والحميدى رقم ٣٢٢ والقضاة للخشنى ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعى فى الأندلس. ووفد فى عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعى فأكرمهم وتوسع لهم فى العطاء والرواتب مثل عبيد[١] الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إماما فى الفقه على مذهب الشافعى كثير التصنيف فيه وفى القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين فى القرن الرابع الأصيلى[٢] عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب فى اختلاف مالك والشافعى وأبى حنيفة سماه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن الرابع ابن[٣] أمية الحجارى وله كتاب فى أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلا إنه كان بصيرا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بنى أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية فى الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهرى المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسى هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد فى نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقى معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكى. ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى، ونلتقى بمنذر[٤] بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصرى واختلاف العلماء روايةً عن ابن المنذر النيسابورى، كما يحمل مذهب داود الظاهرى، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما فى عهد ابنه الحكم وكان شديدًا فى دينه لا تأخذه فى الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهى المذهب الظاهرى وكان يحتج له ويحامى عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل فى بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًّا على الانتصار للمذهب الظاهرى، وله كتاب فى أحكام القرآن غاية فى بابه. ويلقانا فى القرن

---

(١) راجع فى عبيد الله بن عمر ابن الفرضى رقم ٧٦٩.

(٢) انظر فى الأصيلى ابن الفرضى رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١

(٣) راجع فى ابن أمية الحميدى ص ٣٨٠ وقد سماه ابن آمنة وانظر فى كلمة ابن حزم عنه النفح ١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر فى ترجمته بالفصل الخامس.

الخامس إمام مذهب الظاهرية فى الأندلس على[١] بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦، وكان من أسرة نابهة، إذ كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبى عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد إليها مرارًا وأقامه المستظهر وزيرًا سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصمَّم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكى، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعى ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهرى على أبى الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمنا به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التى أخذ بها الأحناف والشافعية، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغى إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب فى أصول المذهب المالكى القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعى وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهرى ازدهر فى عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهبًا فقهيًّا لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة فى عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعيًا لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهرى يتقدمهم قاضى القضاة ابن مضاء[٢] أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن[٣] حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولى القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن[٤] خطاب الإشبيلى على بن عبد الله قاضى إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكى بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهرى، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهريًّا ثم تحول إلى المذهب الشافعى.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين فى الأندلس لأن لهم كتبًا متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشنى ولابن عبد البر كتاب مماثل وكذلك للنباهى، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية فى الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب

---

(١) راجع فى مصادر ابن حزم ترجمته فى الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء فى ص ٩٧.

(٣) راجع فى ابن حوط الله النباهى ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٤) انظر فى ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغى أن أشير إلى أن النظام القضائى بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره فى المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية[١] من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد فى القضايا المشكلة، وهى تشبه ما نعرف فى قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها فى القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف فى قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محاميًا يثبت ذلك فى عقد بينه وبين المحامى[٢] وكان للمحامى الحق فى أن ينيب من يترافع عنه فى القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضًا فى عقد بينهما[٣]. والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبيِّن للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهى كتب بالغة الأهمية فى بيان الأحوال الاجتماعية فى الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات فى المزارعات وغيرها من الاستئجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستئجار الخيل والسلاح للحرب واستئجار الثياب والحلى والكتب[٤]، وكان لابد لإسلام نصرانى أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فارٍّ من شىء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق[٥].

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصارًا فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

---

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة فى مقتبس ابن حيان لعهد بنى أمية ويسميهم المشاورين.

(٢) انظر فى ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار فى الديباج المذهب ٢/٢٣١.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن العطار ص٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبى المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة[١] للإنسان، وكان يعاصره معتزلى مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان[٢] فى أفعاله، وتابعه فى اتجاهه الاعتزالى ابن السمينة[٣] يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزليًّا. وأول معتزلى أندلسى دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذى ألممنا به فى أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتابٍ أمرَ الناصر فى سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الانسان حر فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - فى عهد الناصر وعادوا إلى الظهور فى عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر الذى أظهر التشدد فى كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد فى عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول[٤] ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية فى عهد ابن أبى عامر وعادت إلى شىء من النشاط فى عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - فى حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل الرعينى. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالى أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيرًا من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيأ لقيام التأليف العلمى فى أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيأ لقيام التفكير الفلسفى فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة فى التفكير الأوربى أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدأين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام فى كتابه الحيوان مستشهدًا بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حريًّا بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ فى أوائل كتابه «فى الأدب الجاهلى»

---

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن فرحون ٥٥/٢ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأمم لصاعد ص ١٠١ وابن الفرضى رقم ٥٧٨، والنفح ٣٧٥/٣ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) ص ٧٢.

وأضافه إلى ديكارت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالى أو الكلامى الثانى أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكارت أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفى: «أنا أفكر فأنا موجود»[١] مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدآن أو الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبها ديكارت اجتلابًا مما ترجم فى اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرى فى[٢] النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلمًا متحققًا برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين فى مديح إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج فى الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثًا خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام فى الإسلام، وفيه ينقض نقضًا دقيقًا مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءية والربانية والعيسوية أتباع أبى عيسى الأصبهانى، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعًا من صنع البشر. ويرى أن الكلمات فى التوراة وفى الإنجيل بعهديه – القديم والجديد – حُرِّفت عن مواضعها على أيدى أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهى من دراساته المتعمقة فى التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل – ببراهين قاطعة – على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهى، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بنى إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعدُّه – كما يعده المسلمون عامة – نبيًا مرسلاً.

---

(١) پالنثيا ص٥٣٤. وانظر فى مبدأ ديكارت الفلسفى ترجمته فى قصة الفلسفة الحديثة للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ١/١٠٠.

(٢) النفح ٣/٣٥٣.

٥

التاريخ

نشطت الأندلس -منذ القرن الثالث الهجرى- فى الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أوبالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أوبالسيرة النبوية العطرة أوبكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد فى هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح فى كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثى الذى مر بنا ذكره بين فُقهائها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معهما وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وبفتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه فى عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا فى أوكسفورد[١]. ونلتقى بعده بعَرِيب[٢] المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبرى وهو مثله على السنوات بادئًا بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له فى الفصل الأخير رسالة تدخل فى التاريخ العام سماها نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ونوادر أخبارهم نشرتُها فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتّاب كتاب إعلام الأعلام فى تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفى مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد[٣] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. ونلتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف فى أيامه، كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض فى الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

---

(١) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس ص ١٨٩، ٢٢١.

(٢) انظر فى ترجمة عريب القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.

(٣) انظر مصادر ترجمة الرازى بين الجغرافيين ص ٨٩.

(٣٧٥-٣٠٠هـ). ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بابن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة٤٦٩ وموسوعتيه التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما فى الفصل الأخير، وليحيى[١] بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب[٢] الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدى إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد[٣] المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى[٤] يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيّل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، وهو تاريخ لبنى الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولابن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سَبْتى، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب، وللكلاعى[٥] سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولابن[٦] سيد الناس الإشبيلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فتون المغازى والشمائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم فى مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٧٣/٢ واختصار القدح المعلى (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإبيارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطى ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر فى تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد فى تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى[١] عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد[٢] المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى[٣] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهى به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال[٤] المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتمس للضبى أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى فى جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له فى الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيراء فى تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر فى الأندلس والمغرب وله أيضًا معجم الصدفى وشيوخه وأصحابه، وللملاحى[٥] محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب فى علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير[٦] أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتتمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيرًا كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو فى أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى[٧] المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى[٨] المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومرَّ ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المار ذكره، وألفت فى أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

---

(١) انظر فى ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/١ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع فى صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال فى التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدفى لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر فى الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(٦) راجع فى ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافى ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(٧) انظر فى الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبى رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٠٠.

(٨) راجع فى النباهى الجزء الثانى من أزهار الرياض ونيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(الأندلس) لابن دحية[١] المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفى مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح[٢] بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهى فى ثمانية مجلدات وسنلم بها فى الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيراء المذكورة آنفًا وكتاب تحفة القادم فى تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق فى العددين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن[٣] سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية فى جزءين بدار المعارف، وله الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضًا، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس فى النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن[٤] الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين فى كتابة التاريخ ينبغى أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة فى نفح الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة[٥] ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

---

(١) انظر فى ابن دحية التكملة رقم١٨٣٢ وصلة الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.

(٢) انظر فى الفتح بن خاقان معجم الصدفى: ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٢٩/٥ وابن خلكان ٢٣/٤.

(٣) راجع فى ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١ والفوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر القسم الأندلسى من كتابه المغرب (طبع دار المعارف).

(٤) انظر فى ابن الأحمر درة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل الابتهاج ٩٩.

(٥) راجع فى ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضبى ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. محمد بن شريفة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٣٩/٢.